" الإحباط و الإغتراب لدى الشباب في ظل العولمة "

الدكتور : سلطان بن موسى العويضة
أستاذ علم النفس المساعد جامعة الملك سعود

حظيت العولمة باهتمام العديد من المفكرين على اختلاف اختصاصاتهم في أرجاء العالم أجمع وانقسموا بين مؤيد ومعارض ولم يكن المفكرون العرب استثناء في هذا الميدان، بل أن خلافهم بدأ منذ اللحظة التي واجهوا فيها المصطلح الانجليزي Globalization فهناك من ترجمها إلى العربية على أنها تدويل، وقال آخر أنها كوكبة وبعضهم رأى فيها كونية، ويبدو أن مصطلح "العولمة" قد نال شيوعاً واستقراراً في السنوات الأخيرة جراء تداوله الواسع في وسائل الإعلام والمنتديات والدراسات (مرسي، 990).

وفي الواقع لم يكن لمفهوم العولمة أية وجود في منتصف عقد الثمانينيات، ولكنه برز خلال التسعيناتومن هنا لا يمكن حصر تعريف العولمة في مفهوم واحد مهما اتصف هذا المفهوم بالشمولية والدقة، فقد يتناوله الاقتصادي بشكل مختلف عما يتناوله التربوي أو السياسي، ولكن يمكن القول بأن العولمة هي جملة من الظواهر الحياتية والمستجدات الفكرية والتطورات التكنولوجية والعلمية التي تدفع في إنجاز زيادة ترابط العالم وزيادة تقاربه وانكماشه وربما دمجه وتوحيده اقتصادياً وثقافياً وتربوياً وسياسياً، ومن خصائص العولمة أنها تدعو إلى اقتصاد عالمي بلا حدود، واتجاهات مالية جديدة تعمل على صياغة عالم واحد، انكماش العالم والذي يضمن

تقارب المسافات والثقافات وترابط المجتمعات والدول (علي،1994).

ولا شك أن ظاهرة العولمة كان لها تأثير كبير على نواحي الحياة المتعددة فقد أبرزت مطالب عصر المعلومات جوانب كثيرة في أزمتها وتشير أصابع الاتهام إلى المؤسسات التعليمية وفلسفتها التربوية السائدة والتي تدفع كل يوم يمزيد من البشر للانضمام إلى قطعان الأغلبية الصامتة وجحافل جيوش الاستهلاك (بكار،2000) وبالتالي فإنه من الواضح أن العولمة وما تحدثه من آثار تمس بالضرورة الإنسان في كل الجوانب المتصلة بقيمها وخطابها وممارستها. ومع أن القليل من القضايا المتعلقة بحقوق الإنسان الآن هي فقط التي يمكن اعتبارها جديدة إلا أن الرؤى والتحاليل المتعلقة بها قد تعرضت لقدر كبير من التحول والتغير (الصواني، 2001).

وحيث تمر ** كافة متغيرات جذرية يمر المجتمع العربي أيضاً بتغيرات عميقة شملت الحياة السياسية الاقتصادية والاجتماعية، ورغم ما يبدو في العديد من النظم العربية في ثبات ظاهري على قمة الهرم السياسي، فإن قاع المجتمع العربي يمر بتيارات عنيفة من التغيرات (العسكري، 2002).

ولعل أكثر التأثيرات بهذه التغيرات المتلاحقة هم الشباب ونعني بالشباب (حسب علم النفس) مرحلة نمو تجمع بين خصائص مرحلتين في التطور النفسي والاجتماعي (Psychosocial) وهما المراهقة والرشد (Blos, 1992). وقد اختلف علماء التربية وعلم النفس في تحديد خصائص هذه المرحلة وطولها، ولكنها المرحلة التي تشهد تحولات وتغيرات جوهرية في اهتمامات الشباب وسلوكه الاجتماعي واتجاهاته نحو الاستقلال والفردية. (العسكري،2002) ولعل هذا هو ما يخلق التناقض بينه وبين البيئة التقليدية التي تحيط به. فهو يريد أن يحرر نفسه من قيود الأسرة والمدرسة التي قيدته طويلاً. وهو يريد في تلك المرحلة أيضاً أن يختار محيطه الاجتماعي الذي يندمج فيه ويتكامل معه ويكون قادراً على اتخاذ القرار وتحقيق ذاته (Sawani,2002).

ولعل هذه الفئة العمرية هي المعنية بعصر العولمة وقضاياه ومشكلاته، فالعولمة مشروع كوني للمستقبل كما يطمح واضعوه ومفكّروه والداعون إليه، لذا إن الجيل الجديد هو الأسبق بالتعاطي مع هذه العولمة، وأدواتها، فالكمبيوتر والانترنت وشبكات المعلومات المعقدة أصبحت في متناول أيدي الشباب في سهولة ويسر، بينما** هذه الأشياء بالنسبة للأجيال الأكبر سناً معضلة لا صله لها. كما أن أنماط المعيشة التي تطرحها (العولمة) في مأكل ومشرب وعادات ثقافية ** بالدرجة الأولى لأجيال الشباب لأنهم الأقدر على الاستجابة والتقبل السريع لأي مفاهيم جديدة خارجة عن المألوف، خاصة إذا كانت تقدم لهم بوسائل باهرة وبطرق تقنية تؤثر في نفوسهم (ابراهيم، 1999).

إن الداعي الكبير للاهتمام بموضوع الشباب وأثر العولمة في إحداث سلسلة من الإحباطات نتيجة التأثر السلبي جراء الوقوع في محيطها يرجع إلى عوامل عدة. فأجيالنا الشابة تشكل اليوم نسبة عالية في الدول العربية من مجموعة السكان، وتدل الإحصاءات في الدول كثيفة السكان على أنهم يمثلون ثلث السكان. أما في الدول العربية و** مستوى المعيشة، فإن هذه النسبة تزداد إلى أن تصل أحياناً إلى النصف نظراً لقلة وفيات الأطفال بها وارتفاع درجة الوقاية الصحية والغذاء (العسكري،2001).

كما أن هذه الفئة الكبيرة لها احتياجات اقتصادية / اجتماعية / نفسية وسياسية غير ملبية وخصوصاً في الدول النانية، مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى ميل هذه الفئة مغتربة عن مجتمعها، وفي حالة غليانها مما يسهل تأخيرها، في حركات قد تكون معادية للأنظمة الحاكمة (الأبوية منها الأسرية أو الحكومية).

على سبيل المثال قل الموارد وارتفاع البطالة وقلة الدخل وإحباط المبادرات الفردية المبدعة والاتجاهات التي تدعم تطوير التفكير الحر المنطلق وغير منمط وقلة التأهيل والتمكين الذهني والامتثال لمواجهة تحديات المستقبل يؤدي إلى انفلات المجتمع وتضييق الخناق على الشباب مما يؤدي بهم إلى الثورة على الوضع، وحالة الإحباط هذه يسهل فيها جعل هذه الفئة قوة ضغط خاضعة للتأثير والهيمنة عليها لمن يوفر لها الموارد (برغوثي، 1999).

إن الشباب العربي يعيش أزمة اغتراب حقيقي، وقد أكدت الدراسات التي أجريت في العديد من الدول العربية. وبين مختلف الطبقات الاجتماعية هذه النتيجة، إن مواجهة الشباب بالأنظمة البيروقراطية وأنماط السلطة غير الديمقراطية لا تبقيه خارجها فقط، ولكنها تجعل دوره ينحصر في الخضوع لها والالتزام بقوانينها مما يشعره بالعجز وعدم القدرة على تحقيق ذاته.

والاغتراب هنا هو مرحلة وسط بين الانسحاب من المجتمع والتمرد عليه. فهو يلجأ إلى ثلاثة أنواع من التصرفات، إما الانسحاب من هذا الواقع ورفضه، وأما الخضوع إليه في الوقت الذي يعاني فيه النفور، وإما التمرد على هذا المجتمع ومحاولة تغييره ولو كن ذلك بقوة السلاح (لاتوش،1992).

إن استمرار تجاهل قضية الشباب في ميثاقاتها العربية وعدم معالجة ما يلاقيه من تدهور في مناهج التعليم، وابتعاد الشباب عن الاهتمام بالسياسة، وجهلهم بتاريخ أوطانهم. وموقف اللامبالاة مما يجري حولهم هو نتيجة حتمية لسياسات التجاهل لمواجهة قضاياهم، وقد حولتهم تلك المشاعر المتناقضة في داخلهم إلى مخزن يغرف كل من لديه مصلحة خاصة في تجنيدهم واستخدامهم (طائي،1998).

ويتبع الحديث عن الشباب، من التخوف الكبير من عدم فهم ديناميكية هذه المرحلة العمرية حركاتها، وبالتالي عدم التجاوب مع الأولويات المعبر عنها وطبيعة المشاكل التي قد تنتج عن ذلك، كما أن الخطورة تكمن في الصراع ما بين مفهومي القومية والعولمة، والصراع بين القومية والعولمة في بلدان العالم الثالث يؤدي إلى

نشوء أزمة حقيقية بالهوية عند الشباب، إذ أن هناك تضارب واضح بين ما يتطلبه كلا النظامين من استعداد وتأصيل وما يطرحوه من أدوار.

وبينما العولمة تتطلب نضوج في تحديد الهوية الذاتية النابعة من الشعور بالأمانة والاستقرار من قوة الفرد ومجتمعه والإيمان العميق بالإرث الثقافي لهذا المجتمع، إذ أن ذلك يشكل الأساس في انطلاقة الفرد للانتماء للعالم بقوة الهوية الذاتية المتبلورة. ما زالت القومية تتطلب الولاء والانتماء إلى الدولة والسلطة الحاكمة وتشكيل الهوية الجماعية المتجانسة ما بين الفرد والدولة. (برغوثي،1999).

وإذ نظرنا إلى الخطابات السياسية في البلدان النامية فإننا نجد أن اتجاه الخطاب السياسي، الاجتماعي ينمي ويؤكد ضرورة الهوية والانتماء القومي والاجتماعي وبنفس الوقت على الصعيد العملي يوجد انفتاح وتنمية اقتصادية واعتمادية كبيرة على الغرب. الذي يؤدي بلا شك إلى التوجه نحو العولمة. وهذا التضارب يؤدي إلى اغتراب فئة الشباب الذي يصعب عليه نتيجة هذا الواقع أخذ دورها الصحيح في تحمل المسؤوليات القومية، السياسية، والاجتماعية الملقاه عليه (العودي، 1999).

والذي يزيد من شعور الشباب بالاغتراب عدا عن الخطاب السياسي، هو عدم شعور الشباب بالانتماء وعدم السماح لهم أخذ دور ومكانة حقيقية في الحياة العامة. أي المشاركة الحقيقية في العمليتين الإنتاجية والسياسية. إذ أن الشباب ليس لهم دور واضح في تحديد معالم الدولة وهناك ** وشك كبير في أن ** على عاتقهم أو إيلاء مسؤوليات عامة لهم في صنع القرار قد يزعزع الوضع الراهن. ولذا يبقوا محاصرون ومساهمتهم لا تتعدى التنفيذ (برغوثي، 1999).

وحين نتحدث عن العولمة وتبعاتها النفسية على الشباب فإننا نتحدث على صعيدين الإيجابي منه والسلبي. أما الجوانب الإيجابية فتتمثل في المقاومة والقوة الذاتية والمتمثلة بمحاولات الشباب المتكررة بتغيير الأوضاع وقلب المعادلات المفروضة على الإنسان ومحاولات تغيير وتكييف الأوضاع الخارجية بما يتلاءم مع الحاجات الحيوية والأهداف الحيوية وتحقيق الذات وهي حلول ذات فاعلية على المدى البعيد. الصلابة النفسية والقوة على التصدي وهناك جوانب تظهر بها هذه القوة:

1) أن يكون الشخص قادراً على التكيف مع الأوضاع الراهنة وأن يخلق شيء في لا شيء.
2) القدرة على الاستفادة من دعم الراشدين.
3) وجود هدف بالحياة أو معنى اجتماعي، وهذا يدعم الشخصية ويجعلها في كثير من الأحيان قابلة على العطاء في مجالات متعددة مثل الصداقة والعمل والحب (ابراهيم، 1999).

أما الجوانب السلبية الناتجة من تدخل العولمة في حياة تلك الفئة فتقبل بالشعور الزائد بالإحباط والمتمثلة في المبالغة في استخدام الأساليب الدفاعية والتي

تبعد الإنسان عن التعامل مع محيطه بواقعية ومن هذه الأساليب الدفاعية التي تنعكس على السلوك الاجتماعي والنفسي:

1. **الانكفاء على الذات:** وهي تسير في التقوقع والانسحاب بدل مجابهة التحديات الراهنة والمستقبلية.
2. **النكوص:** وينعكس ذلك بالأشكال التالية:

أ) التمسك بالتقليد: المجتمع التقليدي مجتمع جامد، متوجه نحو الماضي يضع العرف كقاعدة للسلوك وكمعيار للنظرة إلى الأمور.

ب) الرجوع إلى الماضي الجيد: النكوص بالماضي والانتماء بأمجاده وأيامه السعيدة، وتكون شائعة في حالات الفشل، وهنا تكون عملية تزيين للماضي، من خلال طمس عثراته من جانب والمبالغة في تضخيم حسناته من جانب آخر وهكذا يتحول الماضي إلى عالم من السعادة والهناء أو الجد أو الاعتبار يلغي الزمن من خلال اختزال الديمومة إلى بعدها الماضي فقط، الحياة هي الماضي ولا شيء غيره. أما الحاضر فهو القدر الخائن الذي يجب ألا يقف الإنسان عنده. وأما المستقبل فلا يدخل في الحسبان.

3. **الإسقاط:** عندما يصبح الإنسان في موقف عاجز عن التعامل مع الأمور الحياتية وتحدياتها، يصبح كثير الاعتمادية على الإسقاط بمعنى تحميل الآخرين مسؤولية الفشل، وفي بعض الأحيان هناك مغالاة في هذه الحالة إذ يصبح الإسقاط ميكانيزم ليحاول الإنسان أو الشاب منه التخلص من المسؤولية وإلقاء اللوم على الآخر.

4. التماهي ويأخذ عدة أشكال:

1) التماهي بأحكام المتسلط: وهذه مشاكل نفسية وليست اجتماعية وإنما تعكس نفسها في السلوك الاجتماعي، وهنا يكون الإنسان المقهور والمغلوب على أمره في عملية التماهي بأحكام المتسلطمن ناحية توجيه عدوان المتسلط إلى نفسه وليس للمتسلط مما يشكل مشاعر بالذنب ودونية تقلل في قيمة الذات وينخرط في عملية نفسية وهي الحط من قيمته كإنسان، وقيمة الجماعة التي يعيش معها أصلاً وبالاتجاه الآخر يعلي من شأن المتسلط ويبالغ في اعتباره وفي تثمين كل ما يمت له بصلة.

2) التماهي بعدوان المتسلط: وليتخلص الإنسان المقهور من مأزقه الذي يحيا عن طريق قلب الأدوار، فهو يلعب دور القوي المعتدي ويسقط كل ضعفه وعجزه على الضحايا الأضعف منه الأضر الشبيه به هو المذنب، وهو المقصر، وهو بالتالي يستحق الإهانة والتحطيم. ومن خلال التماهي بالمعتدي يستعيد الإنسان المقهور بعض اعتباره الذاتي وعلى الأدق الوصول إلى وهم الاعتبار الذاتي كما أنه يتمكن من خلال هذا الأسلوب الأولي من تعريف عدوانيته المتراكمة والتي كانت تتوجه إلى ذاته، التي تنخر كيانه وتحطم وجوده. هذا التعريف للعدوانية يصبها على الخارج من خلال مختلف

التبريرات التي تجعل العنف ممكناً تجاه الضحية، ويفتح السبيل أمام عودة مشاعر الوفاق مع الذات، شرط التوازن الوجودي وتشتد الحاجة للضحايا بمقدار ازدياد العدوانية وتوجهها نحو الخارج ومقدار النقص في الوفاق مع الذات. وهذا ما يفسر ظاهر العنف الموجود داخل الشارع العربي وخاصة بين جيل الشباب.

3) التماهي بقيم المتسلط وأسلوبه الحياتي: وهذا الأسلوب من الأساليب الخطرة لأنه يتم بدون عنف ظاهر، وتكون رغبة عند الإنسان المقهور في الذوبان في عالم المتسلط والظالم ويقوم بالتقرب من أسلوب حياته وقيمه ومثله العليا. وهنا في هذا الأسلوب يبحث عن حل للخروج من مأزقه الوجودي وهنا يكون ضحية عملية غسل دماغ مزمنة يقوم بها المتسلط. (Sawani, 2002)

وحول علاقة العولمة بتربية الشباب، فلا شك إما ظاهرة العولمة كان لها تأثير كبير على الجانب التربوي الذي يعنى بقطاع الشباب فكما يقول الدكتور نبيل علي "إن كل تغير مجتمعي لا بد أن يصاحبه تغير تربوي" فالتغير التربوي لا بد وأن يحدث وإلا فإن التربية سوف تجد نفسها متقوقعة وغير قادرة على مواكبة مستجدات العصر (علي، 1994).

وعلى الرغم من أن التربية محافظة، بطيئة التحول والتغير بشكل عام إلا أن ثورة المعلومات المحولة، ستحدث تغيرات واسعة وعميقة في العملية التربوية برمتها، وليس بوسع المدرسة ولا الآباء ولا القادة التربويين ولا المجتمع بعامة إما بغض النظر عما يجري في عالم تكنولوجيا المعلومات. والتغير على الدوام يصطحب مه ظواهر إيجابية وأخرى سلبية وهكذا المعلوماتية. وأن تكنولوجيا المعلومات قد بدأت في اقتحام أسوار المؤسسات الأكاديمية فقد رحب بعضهم بها بلا تحفظ وهناك من أبدى مخاوف وهي في جملتها مخاوف معقولة وعادة ما تترافق مع عمليات التغيير (بكار، 2000).

تعقيب:

إما أن يكون شبابنا اليوم الأداة الأولى في بعث نهضة حديثة لدولنا وشعوبنا، وأما أن يتحولوا إلى وسيلة لتدمير ما بنته الأجيال السابقة، ففي عصر العلم والعولمة ، ليس أمانا كثير من الخيارات، ولا الكثير منالوقت لنفكر ونقرر، فنحن والزمن في سبات مميت، وعلينا – حكومات وقيادات في كل المواقع – أن نبدأ في وضع قضيتهم ومشكلاتهم في مقدمة المسائل الوطنية، ونشرع في وضع الحلول وتطبيقها لمصلحة أجيال الشباب. هذا إذا أردنا أن نجتاز حاضرنا إلى مستقبلنا بأمان. وعلينا أن نعيد تنظيم مجتمعاتنا وحياتنا وفق واقعهم وحجم قوتهم ومدى تأثرهم بما يجري من حولنا في العالم. وأن نعترف بأن شبابنا لن يكونوا أقل تأثيراً بالدور الذي يقوم به نظراؤهم في بقية تلك القرية الكونية، فهم يراقبون وسيحاولون كسر قيود الواقع والتمرد عليه، وسيحاولون تأسيس سلطتهم بمعزل عن مجتمعاتهم، وكذلك من السلطات الاجتماعية والثقافية التي يعيشون تحت مظلتها، ولكي نتدارك الوضع، وقبل أن يتجاوزنا الزمن لا بد نم الاعتراف أولاً بأن نوعية التعليم ومستواه في بلداننا لا تتناسبان مع العصر وطموحات الشباب، فالعالم من حولنا يتحدث بشكل دوري عن (نوعية التعليم) الذي يحتاج إليه في كل مرحلة من التطور المجتمعي، وربط هذا التعليم بتطور الحياة ***، ولمواجهة التدهور في نمط التعليم الموجه نحو شبابنا والذي أفرز حالات الإحباط والاغتراب نتيجة عدم التكيف وملاحقة العولمة لا بد من التحول من أسلوب الحفظ والتلقين، من دور الطالب متلقياً وقابلاً ومطيعاً إلى فلسفة التعليم عن طريق الحوار والمناقشة والتدريب على التعلم الذاتي، وأن تدمج التعليم بالثقافة بشكل متوازن وأن تصبح برامج الثقافة جزءاً من مناهج التعليم.

ومن ثم لا بد من إقحام الشباب للمشاركة في اتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتوسيع دورهم في المشاركة في كل ما يتعلق بحياتهم وتطلعاتهم وطموحاتهم.

إن نظرة سريعة على واقع شبابنا اليوم تكشف لنا مدى عزوف الشباب عن المشاركة في قضايا المجتمع والابتعاد عن المشاركة في الأنشطة المختلفة السياسية منها والاجتماعية.. فشبابنا اليوم يسعى خلف الإعلام الخارجي باحثاً عن الحقيقة، التي بدأ يشك في صدقها في إعلامه الرسمي، متصوراً أنه سيجدها عند الآخر، وهذا بداية الانسلاخ الثقافي وفقد الثقة في ثقافته والقائمين على تسيير شؤونه ومؤشر إلى سهول السقوط تحت تأثير أي إعلام معادلة ولوطنه وتراثه الثقافي والحضاري وشعوره بالإحباط والاغتراب محاولاً الاستسلام.

توصيات:

1. بلورة الهوية خلال مرحلة الشباب وهي مهمة للغاية وهي الأساس الذي يوجه الشباب إلى اختيار مجالات يشارك بها تكون ملائمة لرغباته وقدراته الخاصة في مرحلة الرشد، ولذا فإن إعطاء الإمكانيات وتوفير الفرص في مرحلة الشباب للتعرف الذاتي وفحص القدرات والميول أمر مهم جداً.
2. إشراك الشباب في البرامج والمشاريع الموجهة لهم ، كأن يكون لهم تمثيل في الأطر والمؤسسات التي تعطي هذه الخدمات.
3. على المنظمات غير الحكومية لعب دور في رعاية مفهوم الخيار الفردي والتهيئة له من خلال التعليم غير الرسمي ، النشاطات الشبابية، وتعليم حقوق الإنسان.

المراجع:

1. مرسي ، فؤاد (1990). الرأسمالية تجدد نفسها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص147.
2. علي، نبيل (1994). العرب وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ، ص381.
3. بكار، عبد الكريم (2000). العولمة ، الطبعة الأولى، دار الإعلام، عمان.
4. العودي، مصطفى (1999). أزمة الثقافة العربية والحوار في ظل العولمة، الكلمة، العدد 25، السنة السادسة، ص97.
5. ابراهيم، بكار، (1999). الانتقال إلى مرحلة النضج مسح قومي حول النشىء في مصر: ورقة مقدمة في مجلس السكان الدولي، دار النخيل للنشر والطباعة، القاهرة، مصر.
6. برغوثي، محمد ، (1999). التحرر، التحول الديمقراطي، وبناء الدولة في العالم الثالث، الفلاح، بيروت. الطبعة الأولى.
7. لاقدش، سيرج (1992). ترجمة خليل كلفت. تغريب العالم، دار العالم الثالث، 1992.
8. الصواني، يوسف (2001). العولمة الإنسانية، الرأسمالية والديمقراطية، إشكالات وخيارات، مجلة الدراسات العليا، السنة الثانية ، العدد العاشر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة.
9. كاي ، باش، (1998). العولمة وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية، رواق عربي، العدد التاسع.
10. العسكري، سليمان، (2002). الشباب العربي وملامح ثورة جديدة ، مطبعة الانجلو، مصر. الطبعة الأولى.
11. Blos, P.(1992). On Adolescence. The Free Press: New York.
12. Sawani, Y (2002). “Human Rights in the Era of Globalization: Challenges and Alternatives”, in Hars koechler (ed.) Human and Peoples Rights – Asia and the world, Vienna, Jamahir Society for Culture and Philosophy.